مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد07 / العـدد: 01 (2021)، ص 11- 32

مصادر الأخلاق الصوفية

Sources of Sufi ethics

د. عبد القادر سلطاني [1*]، أ.د محمد حفيان [2]
[1] كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، مخبر تطوير للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة سعيدة (الجزائر)
abdelkader.soltani@univ-saida.dz
[2] كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة سعيدة (الجزائر)، hafiane2010@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/08/09 تاريخ القبول: 2020/12/07 تاريخ النشر: 2021/06/30

ملخص:

تمثل الأخلاق أهم مكونات الفكر الصوفي الإسلامي، لذلك يقوم البحث الحالي على محاولة كشف مصادر هذه الأخلاق، من خلال تتبع نصوص التصوف الإسلامي في مصادرها الأصيلة، واستخراج المصادر التي يستمد الصوفية منها أخلاقهم، والهدف يتمثل في الاستفادة من تلك المصادر في استنباط الأخلاق، أو محاولة لفهم حقائقها، أو استثمار تلك الأخلاق في عملية الإصلاح أو النهضة التي تعرفها المجتمعات الإسلامية.

وقد توصل البحث إلى أن التصوف كمنظومة فكرية تستمد أخلاقها من معاني الأسماء الحسنى الإلهية بطريق الاستدلال والاعتبار، ومن السيرة العلمية والقولية للنبي ﷺ، بطريق القدوة والمثال، كما يعتبر الشيخ واسطة في سلسلة التلقي الصوفي للأخلاق؛ بصفته الموجه والمثال الحي الذي يربي المريد بالهمة والحال. إضافة إلى الإلهام كمصدر يتلقى منه الصوفية الأخلاق والمعاملات التي تَرِد عليهم.

كلمات مفتاحية: التصوف؛ الأخلاق؛ المصادر؛ الاستمداد؛ النهضة؛ الإصلاح؛ المجتمعات الإسلامية.

Abstract:

Ethics is the most important component of Islamic Sufi, thought, Therefore, the article is based on an attempt to uncover the sources of these ethics, By tracing the texts of Islamic mysticism in its original sources, And extract the sources from which Sufism derives their ethics, or they are stated as their sources, With the aim of making use of these sources in extracting ethics, Or an attempt to understand its facts, or to invest those ethics in the process of reform or renaissance that Islamic societies want.

The research has concluded that Sufism as an intellectual system derives its ethics from the meanings of the divine good names by means of inference and consideration, And

* المؤلف المرسل

from the practical and theological biography of the Prophet, peace and blessings be upon him, as a model and example, The sheikh is also considered a mediator in the chain of Sufi reception of ethics, As the guide, guide and living example, who educates the disciple by example and situation. In addition to inspiration as a source from which Sufis receive the ethics and dealings they receive.

Keywords: Sufism; Ethics; Sources; Derivation; renaissance; Repair; islamic societies.

1. مقدمة:

يعبر التصوف الإسلامي عن الجانب الروحي في الإسلام، لأنه حقيقة مرتبة الإحسان، والتي يعد أحد أقطاب الإسلام كدين جاء لإصلاح حال البشرية، والنهوض بهم من حال الجاهلية إلى حال الحلم والعلم، رائما تتميم مكارم الأخلاق، بالزيادة فيها وتهذيب ما يصلح لذلك منها.

وقد احتلت الأخلاق في منظومة الفكر الصوفي حيّزا مهمّا، ومجالا واسعا، حتى عُرفت به، وعُرف بها. لذلك يسعى البحث إلى محاولة الكشف عن مصادر الأخلاق الصوفية، مجيبا عن إشكالية تطرح في ضوء هذا التقديم وهي: ما هي استمدادات الأخلاق في الفكر الصوفي؟ ولأجل الإجابة عن هذه الإشكالية يسلك البحث منهج التحليل، بعد تتبع الأخلاق الصوفية في مصادرها الأولى، ومحاولة الكشف عن المصادر التي أخذت منها الأخلاق، إما تصريحا، وإما ايماء.

والهدف الذي ينشده البحث هو إبراز المصادر الأصيلة التي أخذ منها الصوفية أخلاقهم؛ لتحقيق فهم جيد للأخلاق الصوفية، ومحاولة إحياء تلك الأخلاق في المجتمعات المعاصرة، وبعث حقائقها نهوضا بحال الأفراد والمجتمعات، أو محاولة استثمارها في مشاريع النهضة والإصلاح التي على مستويات مختلفة.

وقد كانت الخطة التي سلكها البحث لتحقيق هذه الأهداف مبتدأة بتعريف للأخلاق، ثم ذكر لمنزلة الأخلاق في الفكر الصوفي، وبيان لأهمية الأخلاق ودورها في إصلاح المجتمعات، ثم ذكر المصادر التي استمدت منها الأخلاق الصوفية. أما الآفاق التي ينشدها

البحث فهي إثارة الباحثين المهتمين بالفكر الصوفي إلى التعريج على موضوع الأخلاق، وإظهار أثرها والاستفادة منها من خلال استثمارها في مشاريع الإصلاح التي تقوم عليها الجمعيات والمنظمات والمؤسسات، وجعلها من أساسيات كل تغيير منشود، بل أحد ركائزه.

1- مفهوم الأخلاق:

أصل مادة (خلق) في اللغة أن تدل على معنيين: الأول: تقدير الشيء، والثاني: أن الشيء أملس (فارس، 1979: 213/2، 214). والمعنى الأول أقرب للموضوع في الظاهر، كأن الخلق أو السجية قد قُدِرت على صاحبها. أما في الاصطلاح العام فالخُلُق: عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية (الجرجاني، 1985: 106).

ومن تأمل المعنى الثاني في اللغة لاحظ وجه تأثير منه في المعنى الاصطلاحي، فما دامت الأخلاق عبارة عن هيئة راسخة، والأصل الثاني تقول عنه العرب: صخرة خلقاء؛ أي ملساء. فكأنَّ تلك الهيئة الراسخة ثابتة لا يمكن أن تتغير، فهي كالحجرة الملساء، تنزلق عليها كل طباع أو أخلاق غير أصلية، متكلفة من صاحبها لا تعكس حقيقة صاحبها.

أما في الفكر الصوفي فقد عرَّفه الهروي في (منازل السائرين) فقال: "الخلق: ما يرجِعُ إليه المتكلِّف من نعته" (المناوي، (د.ت): 161). وقد شرح ابنُ القيم هذا القول فقال: "فمتكلِّف ما ليس من نعته ولا شيمته يرجع إلى شيمته، ونعته وسجيته، فذلك الذي يرجع إليه هو الخلق" (الجوزية، 2010: 603). فالخلق على هذا الأساس عند الصوفية فطري وليس كسبي، فهو راجع إلى الطبيعة والجِبِلَّة. فكلما حاول المرء تكلف شيء من الأخلاق والسجايا، فإنه يرجع إلى ما جُبِل عليه، لأنه يجد في طبعه ميلا إليه وموافقة.

من أجل ذلك اشترط الصوفية في صفة الخُلق السهولة، وهي أن تصدر الأفعال من غير روية؛ لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروِيَّة، لا يقال: خلقه السخاء والحلم (الغزالي، 2011: 5/ 191).

2- مكانة الأخلاق في الفكر الصوفي:

يملك كل فكر إنساني في ثنايا منظومته مجموعة من الأخلاق التي تعبر عن هُوِّية ذلك الفكر، فتحدد الأخلاق الأصول والفروع، وتوضح الأهداف التي ترمي إليها الأفكار. فهي بمنزلة المرآة العاكسة لحقائق ومكنونات الفكر. أما في الفكر الصوفي فتحتل الأخلاق الحيز المهم، وذلك أن منظومته الفكرية قائمة على السلوك، والعمل والتجربة، فهي نتاج قرون ماضية من الأدب المتنقل عبر المشايخ، والتلاميذ، فالأخلاق ميزة هذا الفكر، يقول المستغانمي: "والصوفية رضي الله عنهم لا يُعرَفون ولا يتميزون إلا بالأدب، إذ الشرائع كلها أدب مع الحقيقة، لولا الأدب ما ظهرت أسرارها، ولا أشرقت أنوارها، وليس في الوجود إلا الحقيقة" (المستغانمي، 2006: 9). وقد جعل الصوفية السير إلى الله تعالى بمثابة السفر، فجعلوا له مصطلحات تشبه السفر الطبيعي، من ذلك البداية وهي الجهل والنقصان الطبيعي، ونهاية هي الكمال الحقيقي وهو الوصول إلى الحق سبحانه وتعالى، ومنازل للسفر وهي الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، حيث تترقي الروح في الأحوال والمقامات في كل درجة إلى الأعلى بالتدريج. فالمنزل الأول اليقظة، والمنزل الأخير هو التوحيد، وهو أقصى منازل هذا السفر (الكاشاني، 2011 : 9، 10).

ولقوة العلاقة بين التصوف والأخلاق، فقد قسَّموا الناس باعتبار استجابة النفوس إلى تحسين الأخلاق إلى ثلاث طوائف: عبَّاد، وزهَّاد، وصوفيَّة. فأما العباد فنفوسهم أجابت الأعمال فأقبلت عليها، وجمحت عن الأخلاق؛ لأنهم يسلكون بطريق الإسلام. وأما الزهاد فنفوسهم أجابت بعض الأخلاق دون بعض؛ لأنهم سلكوا بنور الإيمان. وأما الصوفية فنفوسهم أجابت إلى الأخلاق كلها؛ لأنهم راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق؛ ولأنهم سلكوا بنور الإحسان، فتنورت قلوبهم بنور اليقين (السهروردي،2000: 62/2). لذلك امتلك الفكر الصوفي منظومة متكاملة قائمة على السلوك والمعاملة، لأنها تعكس المرتبة الثالثة وهي الإحسان، بعد مرتبة الإسلام والإيمان. والأخلاق ليست محض تنظير وتجريد قال به أصحابه، وإنما هو ما وجده كل سالك

للطريق، فعمل به، أو تكلم به، أو دعا إليه. والأخلاق عندهم قائمة على الأدب مع الله تعالى، والمعاملة مع الخلق، والمراد بالخلق ليس البشر فقط، وإنما يتعداهم إلى جميع المخلوقات من نبات وحيوان وجماد، ولهم في سير النبي ﷺ أعظم القدوة.

فأوَّل موضع يظهر من خلاله الاهتمام بالأخلاق، تعريف التصوف عندهم. فهو وإن تعددت تعريفاته. وذلك التعدد سببه اختلاف أحوال الناطقين بتلك التعريفات، لأنهم نطقوا عن تجربة، والتجارب مختلفة، فكلٌ عبَّر عن التصوف بحسب ما وجد من الأحوال، أو ما بلغ من المقامات. فممَّا أوردوه من تعريفات وكان له تعلق بالأخلاق؛ قولهم: التصوف خلُقٌ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء. وقولهم: التصوف مراقبة الأحوال، ولزوم الأدب. ومن أقوالهم في تعريف الصوفيّ أنه: كالأرض، يُطرَح عليها كل قبيح، ولا يَخْرُج منها إلا كل مَليح. وقولهم أن الصوفيَّ لا يكدره شيءٌ، ويصفو به كل شيءٍ (القشيري، 1989: 466، 467)، وقولهم: "التصوف الخُلُق مع الخَلق، والصدق مع الحق" (السهروردي، 2000: 59)، وقولهم: "التصوف خلق كريم يخرجه الكريم، إلى قوم كرام" (الأصبهاني، 2009: 1/ 51).

والأخلاق تعكس في حقيقتها جمال الباطن، وهو مقدم على جمال الظاهر. لأن جمال الباطن هو الأساس في قبول الأعمال؛ فـ"لا تصح عبادة الباطن، وعمارة القلب بالعلم، إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف" (الغزالي، 2011: 1/ 181). لقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم" (الألباني،1997: 356/3). وجمال الباطن محبوب لذاته، لأنَّه جمال العلم والعقل والأخلاق، لذلك كان محلُّ نظر الله تعالى من عَبْدِه وموضع محبته. وجمال الباطن يزيد الصورة الظاهرة جمالا، وإن لم تكن ذات جمال. فيكتسي صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات الباطنة، وإن كان أسودا أو غير جميل. وهذا مما يشاهده ويعاينه أرباب القلوب والمعاملات من العارفين بالله تعالى (الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، (د. ت):221). ويقدم جمال الباطن على جمال

الظاهر لسبب آخر وهو أن الجمال الباطنيّ يقوم على المعاناة، والتصبر، والمجاهدة، في اكتساب العلم والمعرفة الصحيحة، والعمل بما يأمر العقل السليم، والتحلي بالأخلاق الفاضلة. وهذا بخلاف الجمال الظاهريّ الذي لا كسب للمرء فيه، بل هو أمر وهبيٌّ، يعطيه الخالق جلَّ وعلا من شاء من خلقه. (الشامي، 1988: 152)

ومن أعلام التصوف الذين أولوا اهتماما كبيرا بموضوع الأخلاق وألفوا فيها التصانيف المتعددة، نجد عبد الوهاب الشعراني الذي وضع كتبا خاصا بهذا الباب

مع بيان أصول تلك الأخلاق ومصادرها. لذلك سيتأنس البحث بآرائه في هذا الباب ويستصحب تقسيماته.

3- أهمية الأخلاق في صلاح الفرد والنهوض بالمجتمعات

إذا كانت الأخلاق كما قدمنا تمثل الجمال الباطني للفرد، فهي تظهر الجانب الروحيّ لكل حركة يقوم بها الفرد، أو نهضة تهدف إليها المجتمعات. فالأخلاق هي الوقود الحقيقي لكل نهضة أو تقدم في أي مجال من المجالات، لذلك التَفت في الزمن الحاضر المجتمعُ المفكرُ إلى أخلقة كل شيء، وما ذاك إلا لرؤيتهم أنّ المجتمع الإنساني بحاجة إلى قِيَم تحكمه وتضبطه حركته، لأنه لا يستطيع الاستمرار ولا الحياة من دونها. وإن اختلفت أنظارهم إلى مصدر تلك الأخلاق. لذلك نجد طه عبدالرحمن يرد على مسلمة شائعة مفادها ((أن الأخلاق صفات كمالية، لا يضرُّ فقدُها الإنسان في شيء، بل قد يستغني عنها؛ إذ ليست ضرورية، بل هي بمنزلة ترفٍ لا يضرّنا عدمُ تحققه))، فردَّ على ذلك بقوله مبرزا أهمية الأخلاق، فقال: "وليس الأمر كذلك، لأن الأخلاق صفات لا يختلُّ بفقدها نظام السلوك فقط، بل أيضا نظام الحياة، فلو تصورنا وجود مجتمع ما غير متمسك بالأخلاق ولا بالقيم التي تُسنِد هذه الأخلاق، لوجب أن نعدُّه، لا مجتمعا فاسدا فحسب، بل مجتمعا ميتا، لأنه لا حياة بغير الأخلاق" (عبدالرحمن، 2013: 56).

والرأي أن طه عبدالرحمن يكون قد بالغ في جعل الأخلاق تُنزَّل منزلة الضرورات التي إذا فقدتها البشرية اختلَّ نظام الحياة، فتُصبح المجتمعات كالميتة بفقد الأخلاق، وهذا

فيه نزوع نحو المثاليَّة أكثر؛ لأنه فيه مبالغة في إعطاء جانب الأخلاق مساحة أكثر ضمن الشروط التي على أساسها تستمر الحياة البشرية، فهي عند الجميع أحد مكونات التي تسهم مع الأخريات في بقاء الجنس البشري، واستمراريته. وقد يكون ممكنا القول بالمذهب الذي ذهب إليه إذا اعتبرنا منهجه الصوفي؛ إذ الصوفيَّة أمرهم قائم على التوحيد، والتوحيد غاية المتعبدين، وفيه للواصلين إليه من تمام الحياة والصلة بالله ما يستغنى به عما سواه، لأنه مقام الجمع والتمكين فلا يلتفت فيه إلى السِّوى.

لذلك كانت الغاية من التخلق الحسن الوصول إلى الله عز وجل، واستجلاب مرضاته، فإذا عظمت الغاية، عظمت الوسيلة، فبلغت الأهميَّة، يقول الغزالي: "وغاية هذه الأخلاق أن ينقلع عن النفس حبُ الدنيا، ويرسخ فيها حب الله تعالى، فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى، فلا يستعمل جميع ما له إلا على الوجه الذي يوصله إليه، وغضبه وشهوته من المسخرات له، فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى، وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل، ثم يكون بعد ذلك فرحا به ومستلذا له" (الغزالي، 2011: 5/ 209-210). ولهذا اعتنى الصوفيَّة بالجانب الأخلاقي في منظومتهم السلوكية، لأنه لا انفكاك عن الأخلاق بحال، فكل مريد للإصلاح أو النهوض في ميدان معين، يجب عليه استصحاب الأخلاق في مشروعه، يقول زكي مبارك: "إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية، والأساس أن يَكمُل الصدقُ ويَسُودَ الإخلاصُ بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عما آمنت به واطمأنت إليه في عالم المعاني، وكذلك يتمثل التصوف في صور كثيرة؛ فيكون في الحب، ويكون في الولاء، ويكون في السياسة حين تقوم على مبادئ تتصل بالروح والوجدان" (مبارك، 2012: 27-28).

وأمرُ إغفال الأخلاق في الحضارة الأوربية ما بعد النهضة منشؤه الإغراق في التجريب، الذي أرادوا من خلاله إخضاع كل شيء للتجربة والفحوص، وَفْقا لمناهجهم العلمية التي أنشئت لاختبار كل عينة محل الدراسة. لذلك عاب المتنبهون من رواد الفكر والحضارة الأوربية إغفال الجانب الروحي، وأثره في الإنسان، وقدرة على التغيير. يقول ألكسيس

كاريل:" فقد طبقنا على الإنسان آراء تتصل بالعالم الآلي، فأهملنا التفكير، والعفو الأدبي، والتضحية والجمال والسلام. وعاملنا الفرد كما نعامل المادة الكيميائية والآلة أو جزء من آلة. لقد قضينا على وظائفه الأدبية والجمالية والدينية" (كاريل، 1980: 307-308). لذلك تراه يُظْهِر أهميَّة الأخلاق والجمال الباطني للإنسان، وأثرَه البالغ في التغيير المنشود لإصلاح حال البشرية، يقول في موضع آخر: "أما الجمال الأخلاقي فاستثنائي وهو ظاهرة ملحوظة جدا... وهذا الشكل من أشكال الجمال أكثر تأثيرا بكثير من جمال الطبيعة والعلم، إنه يمنح أولئك الذين يملكونه هبات جليلة الشأن، قوة عجيبة لا يمكن إيضاحها، إنه يزيد قوة العقل، يوطد السلام بين الناس، والجمال الأدبي يفوق العلم والفن من حيث إنه أساس الحضارة" (كاريل، 1980: 153).

والأخلاق الصوفية باعتبارها لونا إسلاميا للسلوك، ومادام الإسلام قام على تتميم مكارم الأخلاق التي عرفتها البشرية تحت تعاليم الرسالات السابقة له، فإن في تعاليمه وفي الأخلاق التي دعا إليها أثرا من تلك التعاليم السابقة، الأمر الذي يكسب منظومته الأخلاقية حركية وقدرة على التغيير لوراثتها مقومات الإصلاح، وجمعها لكل شريفٍ من الأخلاق والمعاملات من الأمم السابقة، وفي هذا يقول طه عبد الرحمن: "وهذا هو السبب الذي يجعل الأخلاق الإسلامية أكمل قيمة وأكثر حركة من سابقاتها، لأن الحركيَّة الموجودة في الأديان السابقة زادت مع الدين الإسلامي، وكذلك الكمالية الموجودة في القيم السابقة زادت أيضا مع هذا الدين بموجب خاتميته وتتميمه لمكارم الأخلاق. وما دام الإسلام دينا جاء للناس كافة، فإننا نستطيع أن نخدم ونُسْهِم في الحضارة الكونية من هذه الزاوية الأخلاقية، فالقيم التي يحتضنها الإسلام قيم كونية يقبل بها البشر جميعا، شريطة أن تقدم وتعرض إلى الآخرين بالطرق نفسها التي يعرضون بها، هم، قيَمهم، وهي طرق استدلالية حوارية، أي طرق تعتمد آليات الاستشكال الفلسفي والاستدلال المنطقي المعروف في مجال الفكر بصفة عامة" (عبدالرحمن، 2013: 62-63).

4- الأخلاق الصوفيَّة مصدرها الأسماء الإلهيَّة

تتوارد معاني الحكمة والتفلسف على أنها التشبه بالأخلاق العالية بقدر الإمكان، لذلك نجد المتصوفة جعلوا المصدر الأول للأخلاق الاتّصاف بمعاني الأسماء الحسنى، لأن معاني تلك الأسماء تحقِق الأدب. فقد رووا عنه تعالى أنه قال: "من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب" (الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، 2010: 647). وهذه الأسماء وردت في الكتاب العزيز، وفي السنة النبوية الشريفة، فهذا الأخذ سبيله السمع أولا، ثم يأتي الاستدلال والاعتبار في الأخذ منها. قال ابن عربي: "ولهذا وصف نفسه بأن له أسماء وأخلاقا، وهي معلومة عند علماء الرسوم ألفاظها ومعانيها، وعند أهل الله الاتصاف بها حتى أطلق عليهم منها أعيان أسمائها كما قال عن نبيه ﷺ: ﴿**بالمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[التوبة:128]. ووصف نفسه بأنه أحسن الخالقين وخير الشاكرين وخير الناصرين، وكل ذلك اتّصف به أهل الله على السُّنَّة المشروعة والطريقة الإلهيَّة الموضوعة، فاتخذوا ذلك قربة إلى الله" (عربي، 1999: 54/8)، وقال معرِّفا مقام التصوف في أبيات شعرية منها:

" إن التصوُّفَ تشبيه بخالقنا * لأنه خَلْقٌ فانظر ترى عجبا

إن التصوُّفَ أخلاقٌ مطهرةٌ * معَ الإلهِ فلا تعدلْ بهِ نسبَا "(عربي، 1999: 400/3).

أما الدليل العقليّ، والبرهاني الإشاري الذي سلكوه في التدليل على هذا فهو الواسطة التي اتخذوها في نسبة هذه الأخلاق، ألا وهو النبي ﷺ؛ فقد نبَّه السهروردي، عند حديثه عن تشبث الصوفية بالأخلاق النبوية في حديث عائشة رضي الله عنها، لما سئلت عن أخلاق النبي ﷺ ، فقالت: "كان خلقه القرآن" (المباركفوري، 1999: 468/1). ففسر هذا الحديث من طريق الإشارة فقال:" فيه رمزٌ غامضٌ وإيماءٌ خفيّ إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول: متخلقا بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن استحياء من سُبحات الجلال، وسَترا للحال بلطف المقال، وهذا

من وفور علمها وكمال آدابها" (السهروردي، 2000: 58/2). وقد استبق الرد على إشكال قد يَرِدُ؛ فحواه عدم إمكان تخلق البشر بالأخلاق الإلهية لاختلاف الحقيقة بين الخالق والمخلوق، فقال: "والله أبرز إلى الخلق أسماءه مُنبِئة عن صفاته سبحانه وتعالى، وما أظهرها لهم إلا ليدعوهم إليها، ولولا أنَّ الله تعالى أودع في القوى البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء" (السهروردي، 2000: 58/2).

وقد وضع ابن عربي طريقة لانتقاء الخُلق المناسب، والمحل المناسب لذلك الخلق، في التخلق بالصفات الإلهية، شرَط فيها المعرفة التامة، والعقل الراجح، والحضور، والتمكن القوي من النفس، فقال: " ومن شرط المنعوت بالتصوف أن يكون حكيما ذا حكمة، وإن لم يكن فلا حَظَّ له في هذا اللقب، فإنه حكمة كله، فإنه أخلاق، وهي تحتاج إلى معرفة تامة وعقل راجح وحضور وتمكن قويّ من نفسه، حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسية، وليجعل القرآن أمامه صاحب هذا المقام فينظر إلى ما وصف الحق به نفسه، وفي أي حالة وصف نفسه بذلك الذي وصف نفسه، ومع من صرف ذلك الوصف الذي وصف به نفسه، فليقم الصوفي بهذا الوصف بتلك الحال مع ذلك الصنف، فأمر التصوف أمر سهل لمن أخذه بهذا الطريق، ولا يستنبط لنفسه أحكاما ويخرج عن ميزان الحق في ذلك" (عربي، 1999: 3/400-401).

وقد قرَّر هذه المسألة الأمير عبد القادر في تحقيق القدوة بالنبي ﷺ في الصبر على الأذى، فقال: " دَفَعَ السيئة بالحسنة، وقابَلَ كلَّ مكروه بالأضداد المستحسنة، تخلقا بالأخلاق الإلهية وتحققا بالأسماء الرحمانية ... ويدخل تحت هذا القسم من مكارم الأخلاق وحسن الشمائل، وعلوم سياسة الدين والدنيا، التي بها نظام العالم وعمارته، وسعادة السعيد مالا تضبطه الأقلامُ، وتكلُّ دونه الأوهامُ" (الجزائري، 2004: 46/1). وقال في موضع آخر: "فلهذا صحَّ للإنسان – دون سائر المخلوقات- أن يتخلق ويتحقق بجميع الأسماء الإلهية، على تقابلها وتضادها، ويظهر بها ظهورا حقيقيا أصليا" (الجزائري، 2004: 575/1).

وذِكْرُ أخلاق النبيّ ﷺ في مسألة التخلق بالصفات المتضمَّنة في الأسماء الحسنى ورد على سبيل الوسيلة الواصلة بين الفرد وربه، إذ لا يمكن مباشرة التخلق هكذا من دون دليل لا يملك صفة العصمة والاصطفاء، قال طه عبد الرحمن: "بيد أن المتخلِقَ لا يباشر التخلق بها كيفما اتفق، بل يتوسل في ذلك بتخلق الرسول عليه الصلاة والسلام، وبهذا، يكون التخلق المؤيد ضاربا بجذوره في الأخلاق الإلهية، لأن صاحبه يبني تخلقه أساسا على مقتضى التخلق الرباني المتجلي في سلوك نبيه الكريم، لا على مقتضى التخلق الاجتماعي الذي يستفيده من سلوك الجمهور من حوله، ولا على مقتضى التخلق النفساني الذي يحدِّثه به ضميره" (عبدالرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، 2000: 85).

5- النبي ﷺ المصدر العمليّ للتخلّق الصوفيّ

إذا كان النبي ﷺ هو المقصود الأول بالتأديب والتهذيب في شريعة الإسلام، فهو كذلك عند الصوفية، مشرِق النور على كافة الخَلق؛ لذلك جعل الصوفيَّةُ النبيَّ ﷺ القدوةَ العمليَّة، والمصدرَ الثاني في الاتّصاف بالأخلاق، لأنه القائل عن نفسه: ((أدَّبني ربّي فأحسن تأديبي))، فجعلوا أنفسهم أقرب الناس في التخلق بأخلاقه، والسير على هديه، قال السهروردي: "الصوفيّة أوفر الناس حظا من الاقتداء برسول الله ﷺ وأحقهم بإحياء سنته، والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ من حسن الاقتداء به وإحياء سنته ... فالصوفية أحيوا سنة رسول الله ﷺ، لأنهم وقفوا في بداياتهم لرعاية أقواله، وفي وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك في نهاياتهم أن تحقَّقوا بأخلاقه، وتحسين الأخلاق لا يتأتَّى إلا بعد تزكية النفس، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، وقد قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم:4] لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا" (السهروردي، 2000: 56/2). وقال الطوسيُّ واصفا حالهم معه عليه الصلاة والسلام في تحقيق القدوة فقال: "وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله عليه الصلاة

والسلام، والأسوة به، واقتفاء أثره، بما بلغهم من آدابه، وأخلاقه، وأفعاله، وأحواله، فعظّموا ما عظّم، وصغّروا ما صغّر، وقلّلوا ما قلّل، وكثّروا ما كثّر، وكرهوا ما كره، واختاروا ما اختار، وتركوا ما ترك، وصبروا على ما صبر، وعادَوْا من عادى، ووالوا من والى، وفضّلوا من فضّل، ورغبوا فيما رغب، وحذروا ما حذر؛ لأن عائشة رضي الله عنها، سئلت عن خلق رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ فقالت: كان خلقه القرآن، تعني موافقة القرآن" (الطوسي، 1960: 133).

وقد فسَّر الصوفيَّة الخُلُق العظيم الذي وُصِف به المعصوم عدة تفسيرات منها أنه: لباس التقوى، وأنه التخلق بأخلاق الله تعالى؛ بحيث لم يبق للأعواض عنده خطر. أو أن لا يكون له اختيار، ويكون تحت الحكم الإلهيّ مع فناء النفس وفناء المألوفات. فلم يرض النبي ﷺ بالأخلاق، ولم يلتفت إليها، وسار ولم يسكن إلى النعوت، حتى وصل إلى الذات (السهروردي، 2000: 2/60-61). والخلق العظيم كذلك دال على اجتماع أخلاق الأنبياء فيه فـ"كما عرَّفه الله سبحانه أخبار من قبله من الأنبياء، عرَّفه أنه اجتمعت فيه متفرقات أخلاقهم، فقال: وإنك لعلى خلق عظيم" (القشيري، لطائف الإشارات، 1971: 6/ 185). والنبيُّ ﷺ عند الصوفية يمثل الإنسان الكامل الذي لا أكمل منه، الذي ساد العالم في الكمال الأتمّ، لأنه "كان القرآنُ خلقَه ﷺ، فمن أراد أن يرى رسول الله ﷺ ممن لم يدركه من أمته، فلينظر إلى القرآن، فإذا نظر فلا فرق بين النظر إليه وبين النظر إلى رسول الله ﷺ، فكأن القرآن انتشأ صورة حسية يقال لها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، والقرآن كلام الله وهو صفته، فكان محمَّد صفة الحق تعالى بجملته" (عربي، الإنسان الكامل من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي، 1990: 28).

ولاعتناء الصوفيّة بالأخلاق المحمَّديَّة؛ فقد انبرى الشعراني لإحياء ما اندرس من الأخلاق المحمدية وأخلاق السلف الصالح، من خلال عملية التأليف، من هذه الكتب كتاب أسماه ((لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمَّديَّة))، يقول الشعراني في سبب

تأليفه الكتاب: "ثم اعلم يا أخي أن طريق العمل بالكتب والسنة قد توعَّرت في هذا الزمان، وعزَّ سالكها لأمور عرضت في الطريق يطول شرحها، صار الإنسان يرى الأخلاق المحمدية فلا يقدر على الوصول إلى التخلق بشيء منها" (الشعراني، 1993: 4). وإذا كان من شرط التربية الصوفية وجود الشيخ المُسلِّك، فإن في تلقي الأخلاق من الرسول عليه الصلاة والسلام لا يشترط الشيخ دائما كسند في سلسلة الأخلاق لإمكان لقاء الرسول ﷺ، يقول الشعراني: " فهو الشيخ الحقيقي لنا بواسطة أشياخ الطريق أو بلا واسطة، مثل من صار من الأولياء يجتمع به ﷺ في اليقظة بالشروط المعروفة عند القوم، وقد أدركت بحمد الله تعالى جماعة من أهل هذا المقام" (الشعراني، 1993: 5). ولأجل لقاء الشعراني بهؤلاء القوم فقد عدَّ تلك العهود متلقاة منه ﷺ، يقول في ذلك:" واعلم يا أخي أن رسول الله ﷺ لما كان هو الشيخ الحقيقي لأمة الإجابة كلها، ساغ لنا أن نقول في تراجم عهود الكتاب كلها: أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ، أعني معشر جميع الأمة المحمدية، فإنه ﷺ إذا خاطب الصحابة بأمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب حكم ذلك على جميع أمته إلى يوم القيامة" (الشعراني، 1993: 5).

6- الشيخ المربّي، مرافقة ووساطة في التخلق الصوفيّ

من شروط سلوك الطريق الصوفي صحبة شيخ يهدي المريد إلى مسالكَ الهدى، ويقيه مهاويَ الردى. وكذلك الشأن في التحلي بالأخلاق فلا بد من وجود الشيخ، لذلك وضع أحمد رزوق في قواعده، قاعدة أسماها (أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم من أخذه دونهم)، ومما جاء فيها دالا على أهمية الشيخ في التربية قوله: "فأما العلم والعمل فأخذه جليٌّ فيما ذكر وكما ذكر، وأما الإفادة بالهِمَّة والحال فقد أشار إليها أنس بقوله: ((ما نفضنا التراب على أيدينا من دفنه ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا))، فأبان أن رؤية شخصه الكريم كان نافعا لهم في قلوبهم. والعلماء ورثة الأنبياء حالا ومقالا وإن لم يدانوا المنزلة، وهو الأصل في طلب القرب من أهل الله في الجملة؛ إذ مَنْ تحقق بِحالةٍ لمْ يَخْلُ حَاضِرُوه منها،

فلذلك أمِرَ بصحبة الصالحين، ونُهِيَ عن صحبة الفاسقين، فافهم" (الفاسي، (د. ت): 116-117). وذلك أن صحبة الشيخ نافعة في هداية المريد، يقول الشعراني: "فلذلك كنت أقول في غالب عهود الكتاب وهذا العهد يحتاج من يعمل به إلى شيخ يسلك به الطريق، ويزيل من طريقه الموانع التي تمنعه عن الوصول إلى التخلق به، أو نحو ذلك من العبارات إشارة إلى أنه لا يلزم من معرفة الفقيه بالأحكام الوصول إلى العمل به. بل يحتاج مع ذلك إلى شيخ يريه معالم الطريق كما وقع للإمام الغزالي والشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيرهما" (الشعراني، 1993: 4). فعمل الشيخ قائم على توجيه المريد، والأخذ بيده إلى الصواب من الأخلاق؛ بتقديم ما يصلح له، وتأخير ما هو قابل للتأخير. وإرشاده إلى الخروج من الصفات الباطنة الذميمة.

وقد جعل الشعراني حكم اتخاذ الشيخ واجبا على المريد، لأنه لا يستطيع الوصول من دون شيخ:" فعلم أن كل من لم يتخذ له شيخ يرشده إلى الخروج من هذه الصفات فهو عاصٍ لله تعالى ولرسوله ﷺ ، لأنه لا يهتدي لطريق العلاج بغير شيخ ولو حفظ ألف كتاب في العلم، فهو كمن يحفظ كتابا في الطب ولا يعرف ينزل الدواء على الداء، فكل من سمعه وهو يدرس في الكتاب يقول إنه طبيب عظيم، ومن رآه حين يسأل عن اسم المرض وكيفية إزالته قال إنه جاهل، فاتخذ لك شيخا واقبل نصحي وإياك أن تقول طريق الصوفية لم يأت بها كتاب ولا سنة فإنه كفر" (الشعراني، 1993: 9). وقد ردَّ الشعراني على اعتراض محتمَل؛ وهو أنَّ أمر وجوب اتخاذ الشيخ لم يكن معهودا عند السلف والأئمة المجتهدين، وقدرهم معلوم في التزكية والتقوى، فقال: "واعلم أن كل من رزقه الله تعالى السلامة من الأمراض الباطنة كالسلف الصالح والأئمة المجتهدين، فلا يحتاج إلى شيخ ﴿ بَلِ الإنسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾[الإنسان:14]". (الشعراني، 1993: 9)

واشترطوا الشيخَ في تحقق السلوك الصحيح لِمَا لهُ من خبرة في المعاملات والمجاهدات، ودربة في التفريق بين أنواع الواردات، فهو "عارف بالكتاب والسنة عارف بميزان الخواطر النفسية والشيطانية والملكية والرحمانية، عارف بالأصل الذي تنبعث من هذه الخواطر

من حضرات الأسماء الإلهية، عارف بالعلل والأمراض المعوقة عن صحة الوصول إلى عين الحقيقة، عارفا بأمزجة المريدين ليعطي كل إنسان من العمل والطعام وغيرهما ما يقدر عليه، عارفا بالعلائق الخارجة عن أعمال الطريق كالميل إلى الوالدين والأولاد والزوجة. والآمال والرياسة له قدرة على جذب المريد واستخلاصه من أغمام الشياطين، وايدي العوائق بواسطة رغبة المريد في طريق الله" (الشعراني ع.، الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، 1991: 46-47)

وإن كان الشيخ هاديا للمريد في التخيُّر بين الأخلاق الواجب عليه اتخاذها فهو كذلك مصدر ثالث للأخلاق، فقد ألف الشعراني في هذا الباب كتاب ((البحر المورود في المواثيق والعهود)) خصَّه في العهود التي أخذت عليه من مشايخه الذين ذكر أسماءهم في التخلق بأخلاق معينة، قال في أوّله:" فهذه عهود ومواثيق أخِذَتْ علينا من سادتنا ومشايخنا الذين عاصرناهم وبعضها من نور صفاتهم وأخلاقهم المحمدية، حسب ما قدرنا عليه من التخلق بها، وذلك لأن أخلاق الأكابر لا ملقى لأمثالنا إلى ذوقها ولا التخلق بها، وغالبها من هؤلاء الأعيان العشرة ..." (الشعراني ع.، البحر المورود في المواثيق والعهود، 2004: 5). لذلك ذكر في موضع آخر أن من شروط المريد مراقبة شيخه والنظر في أخلاقه المحمودة مدة حياته، والاتصاف بها، لأن في ذلك كمال الأدب والإخلاص للعهد الرابط بينهما. يقول الشعراني:" ومن أخلاقهم أن يكون أحدهم كثير النظر في أخلاق شيخه ليتأسى بما فيها من زهد وورع وخشوع وقناعة وتفويض وتسليم وصبر وغير ذلك، ولا يهمل أخلاق شيخه، فلا يتخلق منها إلا إذا مات شيخه، يصير حكويا، يقول كان شيخنا كذا وكان يفعل كذا ... فالعاقل من تدارك ما فاته من شيخه على يد شيخ آخر، ولم يغش نفسه" (الشعراني ع.، 1991: 133).

وأخذ المريد الأخلاقَ من الشيخ فيها احترام للسلسة والسند الطريقي، إذ أن أمرَ الانتقال في الطريقة موكول إلى السند، فلا بد من وجوده لتحقيق قدر أكبر من الوثوقية والضبط في التلقي. والاهتمام بالشيخ يضفي على الأخلاق جانبا من العمل أكثر من النظر،

وفيه تحقيق لمبدأ الاقتداء المؤيد، الذي هو من طرق التخلق الإسلامي المؤيد، يقول طه عبد الرحمن: " فإن طالب مرتبة التخلق المؤيَّد يجتهد في البحث عمن تحقق فيه التخلق النبوي، باحثا عن سنده في ذلك حتى يصعد به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ومتى ظفر بهذا المتخلق المستند، سلمه قياده وأخذ عنه، وهو متيقن من أنه سوف يحصِّل على يده ما لا يقدر على تحصيله بنفسه، وذلك لإيمانه الذي لا يتزحزح بأن العمل يُتوارث، متخلقا عن متخلِق، كما يتوارث القول، راوية عن راوية "(عبدالرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، 2000: 85). ولأهمية السند في التخلق الصوفي، قال البسطامي: "من أخذ هذه الطريق عن خبر متصل الإسناد، كان في غاية القرب من رب العباد، ومن لا أستاذ له، فالشيطان أستاذه" (الفاسي م. 2012: 62) ، كما اعتنوا بعلو السند أسوة بعلماء الحديث؛ من خلال تقليل المشايخ المتوسطين، فقد ذكر الشعراني ذلك مقوّيا حجته في تأليف كتاب ((المنن الكبرى)) فقال: "وإنما خصصت تشييد الكتاب بأخلاق هؤلاء الأشياخ الثلاثة دون غيرهم، لما تواتر عن أصحابهم أنهم كانوا يقولون إن مشايخنا أخذوا طريقهم عن رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة بالشروط المعروفة عند القوم، فبيني وبين رسول الله ﷺ من طريق سيدي إبراهيم المتبولي رجلان، ومن طريق غيره رجل واحد" (الشعراني ع.، لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق، 2004: 14).

والأثر الذي يتركه الاقتداء بالحي، يتمثل في تحقيق تكامل أخلاقي تجتمع عليه جلُّ جوارح المريد، فيدخل في فعل التخلق بجميع وجوده، يقول طه عبد الرحمن:" لقد سلف أن مبدأ الاقتداء بالحي يوجب على المتخلق أن لا يعتمد في تخلقه على نفسه ولا على ميت أو غائب، وإنما ينبغي أن يعتمد على شخص متخلق غيره يكون على قيد الحياة وعلى شرط الحضور؛ يلزم من ذلك أن التخلق المؤيد عبارة عن تخلق تشترك فيه مجموع جوارح المتخلق وجوانحه، بمعنى أنه يدخل في فعل التخلق بجمعيته، حتى يستولي هذا الفعل على تمام أنفاسه وألحاظه وعلى تمام حركاته وسكناته، بحيث تسري الحياة

الخلقية سريانا في كل ذرة من ذرات بدنه وفي كل معنى من معاني روحه" (عبدالرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، 2000: 86).

إذا فالأثر الذي يتركه الاتصال بالشيخ الحيِّ يكون أبلغ خاصة في ميدان التخلق والتأسي، لأن نقل المعاملات والمجاهدات ينبغي فيه التقليد والتوجيه، وهذا أمر معاين في واقع التربية والتعليم، لحصول الفائدة العميمة من خلال تعدد منافذ التعلم الإنساني بزيادة الحواس في مرحلة التلقي، إضافة إلى الإيمان القائم على الصلة الروحية بين المريد والشيخ.

7- الإلهام تنزلٌ من مصدر التخلُّق الصوفيّ.

الإلهام تلقي علوم ذاتية حاصلة عن إخبار من الحق بلا واسطةِ غيرٍ، وغيريَّة بين المخبر والمخبر له (الكاشاني ع.، 2000: 114). فهو إذا متعلق بعالم الأنوار الإلهية، عالم الغيب المخفي الذي لا يتم التواصل معه إلا إلهاما عن طريق تلق من علو تمثله الصفات الإلهية وتجلياتها وإشراقاتها، مما يزود الصوفي بمعرفة أسرار الكينونة أو الوجود. ولقد استخدم الصوفيَّة ألفاظا أخرى للدلالة عليه؛ منها (الإشراق)، و(الشهود)، و(التجلي)، و(المكاشفة) (جودة، 2006: 194).

والسبيل إلى حصول الإلهام شَغْلُ النفس بالمجاهدات، ومحو الصفات الذميمة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكامل الهمَّة على الله تعالى، فتكون النتيجة أن يتولى الله تعالى القلب، فينوِّره بأنواع المعارف والعلوم، فتفيض عليه الرحمة، وينشرح صدره لفعل وتقبل الأخلاق الفاضلة، لانكشاف الحجاب عن وجه القلب بلطف الرحمة، وتلألئ حقائق الأمور الإلهية، فينسحب ذلك على الجوارح والأخلاق؛ فإنَّ في كلَّ صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وَفقها لا محالة. (الغزالي، 2011: 5/ 69، 212).

والأخلاق والمعاملات تُلهَم من دون واسطة من لدن الله تعالى، لذلك عدَّوه من المنن التي يمنَّ الله بها على المصطفَيْن. يقول ابن عربي في وصف طائفة منهم: "قد أعلمهم الله

بالمواطن وما تستحقه من الأعمال والأحوال وهم يعاملون كل موطن بما يستحقه، قد احتجبوا على الخلق واستتروا عنهم بستر العوام، فإنهم عبيد خالصون مخلصون لسيِّدهم مشاهدون إياه على الدوام في أكلهم وشربهم ويقظتهم ونومهم وحديثهم معه في الناس، يضعون الأسباب مواضعها، ويعرفون حكمتها حتى تراهم كأنهم الذي خلق كل شيء، مما تراهم من إثباتهم الأسباب وتحضيضهم عليها" (عربي، الفتوحات المكية، 1999: 51/5) .

وأبرعُ الصوفية في الإفصاح عن هذا المصدر للأخلاق عبدُالوهاب الشعرانيّ، فقد وضع كتاب ((لطائف المنن والأخلاق، في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق)) أو ما يعرف بـ ((المنن الكبرى)) أفرده للأخلاق التي امتنَّ الله عليه بها دون غيره من السالكين، فرأى من الواجب عليه دلُّ الناس عليها ليعرفوها فينتفعوا بها عملا وينفعوا الآخرين بإرشادهم إليها. قال الشعراني في بداية كتابه: "وبعد فهذه جملة من النعم والأخلاق التي تفضل الحق تعالى بها علي أوائل دخولي في محبة طريق القوم رضي الله عنهم أجمعين... فكان ذلك من جملة شكر نعمة الله تعالى علي؛ إذ خلقَّني بهذه الأخلاق بعد أن كنت معرًى منها." (الشعراني ع.، لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق، 2004: 11) .

وقد صرَّح الشعرانيُّ بهذا المصدر في مواطن منها قوله: "... ثم إلهامي جوامع الكلم من التسبيح والاستغفار، حيث ذهلت عما ورد في السنة لدهشة وارد أو نحوه... ثم تربية الحق لي برؤيتي العبر في غيري، ثم نفرة نفسي من الدنيا، وممن يحبُّها، ثم حمايتي من الأتباع الذين يتعصبون لي بالباطل" (الشعراني ع.، لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق، 2004: 18).

إذا فالإلهام كذاك يعد مصدرا لتلقي الأخلاق عند الصوفية، وإن شكِّكَ في حقيقته وأشكاله من المخالفين للصوفيَّة. إلا أنه ما دام الأمر راجعا إلى التجربة الشخصية،

والممارسة الفردية فلا يسع الإنكار، وتُوكَلُ الأقوالُ إلى قائليها، ويُسَلمُ لهم بها، لأنه أمرٌ غيبيّ قائم على وصلٍ خاص.

خاتمة :

يعد التصوف الإسلامي مظهرا من مظاهر التزكية التي جاء بها الإسلام، والتي رام من خلالها تتميم الأخلاق التي عرفتها الأمم السابقة، والفضائل التي درجت عليها الأنفس الشريفة. وهذا التصوف يقوم على أساس من الأخلاق التي عرف بها، وهذه الأخلاق عند الصوفية مستقاة من مجموعة مصادر نذكر منها:

- الأسماء الحسنى هي مستودع القيم التي بها قوام التخلق الصوفي، فالصوفي يتخلق بالمعاني التي تنكشف عنها الأسماء الحسنى من خلال عملية الاستدلال والاعتبار.

- النبي ﷺ المصدر العملي، والنموذج المثالي الذي يحتذيه الصوفيُّ في عملية التخلق لأنه القدوة، وهو الهدف الأول من الله تعالى بالتهذيب والعناية؛ ليكون إليه الرجوع باعتباره الواسطة بين الخلق والحق.

- في المنظومة الصوفية يعتبر الشيخ واسطة في السند الخلقي الرابط بالنبي ﷺ، وهو كذلك الهادي والموجِّه لكل مريد في اختيار الأخلاق المناسبة، بحسب الوقت، وطاقة كل مريد، ومرتبته. وهو مع ذلك قدوة للمريد باعتبار المثال الشاهد الدال على الغائب.

- الإلهام من مصادر المعرفة الصوفية، وهو كذلك من مصادر الأخلاق الصوفية؛ إذ من خلاله يصبح الصوفي الذي بلغ مراتب معينة قابلا لاستقبال الواردات من المعاني والأخلاق التي يُهدى إليها، بعد مجاهدات ومعاملات يستطيع من خلالها التفريق بين الواردات النفسية والشيطانية والمَلَكية.

- تحتل الأخلاق مكانة مهمة في الفكر الصوفي لأنه قام منذ نشأته على العمل بعد المعرفة، والسلوك والتجربة البعيدة عن النظر المجرد.

- للأخلاق بصفة عامة والصوفية منها خصوصا أهمية بالغة في العناية بالجانب الروحي للإنسان، والذي يعد وقودا لكل حركة شريفة، ونزعة تصبو إلى الرقي والعروج، على مستوى الفرد أو المجتمع.

أما فيما يخص التوصيات المقترحة، فإنه يمكن للمهتمين بالشأن الصوفي الالتفات إلى هذا التراث الذي يعرف نقصا في الخدمة من خلال تحقيق النصوص المخطوطة، ونشرها لتسهل عملية القراءة، والنقد، والتمحيص، ونسبة المؤلفات لأصحابها رأسا. بالإضافة إلى خدمة المطبوع والعناية به؛ فهرسة وتبويبا. كما يحسن كذلك دراسة منظومة الأخلاق الصوفية واصطفاء ما يمكن أن يواكب ظروف العصر، ومتطلبات النهضة، وشروط الصلاح التي ترنو إليها المجتمعات الإسلامية والإنسانية.

قائمة المراجع:

1- أحمد الشامي، صالح. (1988م). *التربية الجمالية في الإسلام* (ط.1). بيروت: المكتب الإسلامي.

2- الأصفهاني، أحمد بن عبد الله أبو نعيم. (2009م). *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*. تح: سامي جاهين. القاهرة: دار الحديث.

3- الألباني، محمد ناصر الدين. (1997م). *صحيح سنن ابن ماجه*(ط.1). الرياض: مكتبة المعارف.

4- الجرجاني، علي بن محمد الشريف. (1985م). *التعريفات*. بيروت: مكتبة لبنان.

5- الجزائري، الأمير عبد القادر. (2004م). *المواقف الروحية والفيوضات السبوحية*(ط.1). اعتناء: عاصم الكيالي. بيروت: دار الكتب العلمية.

6- حسين جودة، ناجي. (2006م). *المعرفة الصوفية*(ط.1) . بيروت: دار الهادي.

7- زروق الفاسي، أحمد. ((د. ت)). *قواعد التصوف وشواهد التعرف*. عناية: نزار حمادي. الشارقة: المركز العربي للكتاب.

8- السهروردي، عمر . (2000م). *عوارف المعارف*. تح: عبد الحليم محمود وآخر. القاهرة: دار المعارف.

9 - الشعراني، عبد الوهاب. (2004م). *البحر المورود في المواثيق والعهود* (ط.1). القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

10- الشعراني، عبد الوهاب. (2004م). *لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق*. دمشق: دار التقوى.

11- الشعراني، عبد الوهاب. (**1991**م). *الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق* (ط**2**). تح: حسن الشرقاوي. القاهرة: دار المعارف.

12- الشعراني، عبد الوهاب. (**1993**م). *لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية*. تقديم: محمد الأدلبي. حلب: دار القلم العربي.

13- الطوسي، عبد الله بن علي السراج. (**1960**م). *اللمع*، تح: عبدالحليم محمود وآخر. مصر: دار الكتب الحديثة.

14- عبدالرحمن، طه. (**2013**م). *الحوار أفقا للفكر* (ط.**1**). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

15- عبد الرحمن، طه. (**2000**م). *سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية* (ط.**1**). الدار البيضاء: المركز الثقافي المغربي.

16- ابن عربي، محمد بن علي الحاتمي. (**1990**م). *الإنسان الكامل من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي* (ط.**2**). جمع: محمود الغراب. دمشق: دار الفكر.

17- ابن عربي، محمد بن علي الحاتمي. (**1999**م)، *الفتوحات المكية*. ضبط: أحمد شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

18- الغزالي، محمد أبو حامد. (**2011**م). *إحياء علوم الدين* (ط.**1**). جدة: دار المنهاج.

19- ابن فارس، أحمد. (**1979**م). *معجم مقاييس اللغة*. تح: عبد السلام هارون. دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

20- الفاسي، محمد المنالي. (**2012**)، *سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية*. تطوان: جمعية تطاون أسمير.

21- القشيري، عبد الكريم. (**1989**م). *الرسالة القشيرية*. تح: عبد الحليم محمود وآخر. بيروت: دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر.

22- القشيري، عبد الكريم. (**1971**م). *لطائف الإشارات*. تح: إبراهيم بسيوني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

23- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر ،. (د. ت)،. *روضة المحبين ونزهة المشتاقين*. بيروت: دار النبلاء.

24- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر . (**2010**م). *مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين* (ط.**1**). تح: شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة.

25- كاريل، ألكسيس. (**1980**م). *الإنسان ذلك المجهول* (ط.**3**). تر: شفيق اسعد فريد. بيروت: مكتبة المعارف.

26- الكاشاني، عبد الرزاق. (**2000**م). *لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام* (ط.**1**). طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

27- الكاشاني، محمد الفيض. (**2011**م). *العرفان والسلوك عند أهل البيت* (ط.**1**). بيروت: دار الصفوة.

28- المباركفوري، صفي الدين. (**1999**م). *منة المنعم شرح صحيح مسلم* (ط.**1**). الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع.

29- مبارك، زكي، (**2012**م). *التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

30-المستغانمي، محمد بن أحمد البوزيدي. (**2006**م). *الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية* (ط.**1**). ضبط: عاصم الكيالي، بيروت: دار الكتب العلمية.

31- المناوي، محمد عبدالرؤوف. (د.ت). *شرح منازل السائرين*. تح: عاصم الكيالي. بيروت: مؤسسة كتاب ناشرون.